أمة الحضارات والجهاد

تأليف

الفريق عفيف البزري

الفصل السابع

حارفو الثورات ومجمدوها
خدم الفراعنة

اتحاد ممالك التجارة على طريق الهند

قلنا في الحلقات السابقة أن اليهود كانوا دوماً رعايا إمبراطوريات عبودية ينتشرون في أقطارها طوعاً لتعاطي الأعمال التجارية والربا وطلب الرزق بشكل عام. فكانـت جاليـاتهم تنتشر هنا وهناك في العالم حيث تزدهر الأعمال وتتكاثف النشاطات الاقتصادية على اختلاف أنواعها. وقلنا أيضاً أن جالياتهم تلك كانت تتصل بعضها ببعضها الآخر كمـا تتـصل كلهـا بديارهم في فلسطين وعلى الأخص أورشليم، لأن في هذا نفعاً كبيراً لقادتهم وكهنتهم وتجارهم الذين كانوا يحتكرون وكالات ما يصدر في الأسواق الفائقة الأهمية لمنطقة فنيقيـة وفلـسطين وعن الأسواق الأخرى في العالم. ولنلق فيما يلي نظرة على بعض المناطق الهامة في العـالم التي هاجر إليها اليهود. ولنكرر سلفاً أن تلك الهجرات لا صلة لها بأي شكل من الأشكال بأية عقيدة أو كفاح إنساني من أجل هدف عام يرتبط بتحرير البشر, وإنما هي دومـاً مـن أجـل غايات معيشية محصورة باليهود، فكانت في سياق الحياة الإنسانية تتسبب (بتراكمها وانتشارها على نطاق واسع، يتجاوز الحدود الإقليمية فيتخذ أحياناً الشكل العالمي) بتولد حركات انتهازية تعاكس التقدم الإنساني على خط مستقيم وتعاديه، وسنعود في سياق بحثنـا إلـى أكثـر هـذه الحركات أهمية بالنسبة إلينا.

إن تلك العلاقات المتينة التي أسسها حيرام مع اليهود والتي تطلـق عليهـا الموسـوعة بريتانيكا عند تكلمها عن الفنيقيين اسم "الصداقة" كانت في الواقع شركة تجارية سيطر عليهـا الفنيقيون. فالصداقة بين الدول هي توافق المـصالح وتكاملهـا وليـست خَلاّـةً ولا محبـة أفلاطونية: كان الفنيقيون يفتحون الطرق البحرية ويؤمنون سلامتها، أما اليهود فكان عليهم في بادئ الأمر تأمين سلامة طريق حيرام – سليمان الذي يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مع رعاية القاعدة التجارية البرية أورشليم. ثم نمت هذه الشركة التجارية وتعقدت بمرور الزمـان وتوالي التجارب. وقد مر معنا خبر تدخل الفنيقيين لدى قورش وخلفائه كي يعيد هؤلاء سيطرة اليهود (الفرع الثاني من تلك الشركة التجارية) على المرفقين الآنفي الذكر في فلسطين. ودخل على ما يبدو طرف ثالث في الشركة المذكورة. فقصة سليمان وبلقيس ملكة سبأ، تلك المملكـة

التجارية الفائقة الغنى التي كانت تمر بها القوافل البرية والبحرية جيئة وذهاباً من وإلى أفريقيا الشرقية والهند والتي كانت تتعاطى تجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة إلى جانب السلع الأخرى، نقول أن قصة سليمان وبلقيس الذائعة الصيت كانت ترمز في الواقع إلى قيام علاقة تجارية وطيدة بين تلك الشركة الفنيقية-اليهودية وبين اليمن التي انتشرت فيها اليهودية على نطاق واسع فيما بعد: إن القصة التي يرويها الفصل التاسع من أخبار الأيام الثاني من التوراة عن وفود بلقيس على سليمان وعن مظاهر غناها وغنى سليمان وعن اشتراك سليمان وحيرام بالأعمال التجارية ما هي بلغة هذه الأيام إلا خبر مجيء وفد اقتصادي من سبأ إلى أورشليم لعقد معاهدة تدخل سبأ بموجبها عضواً في تلك الشركة التي كانت قائمة بين سليمان وحيرام. ثم أن مصر لم تلبث أن غطت هذا الاتحاد بإمبراطوريتها عندما استتب النظام فيها بقيام الأسرة الثانية والعشرين فدخلت بذلك كشريك رابع في تلك الشركة التجارية العملاقة التي دام عمرها بهذا التركيب نحواً من ثلاثة قرون: من عهد داوود حتى مجيء الآشوريين ليحلوا محل المصريين في تغطية هذا الاتحاد المذكور بإمبراطوريتهم. هنا لا بد لنا من تكرار ملاحظة مرت فيما سبق من هذا البحث وهي: أن هذا الطريق التجاري الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر والذي أخذ شكله المائي في الأزمنة الحديثة بحفر قناة السويس، وشكله السياسي بمبدأ أيزنهاور-دالاس، الذي أعلنه الأمريكيون في أعقاب العدوان على مصر بسبب تأميم هذه القناة عام 1956، تحت اسم ملء الفراغ الذي خلفه المستعمرون القدماء الإنجليز والفرنسيون، وشكله العسكري-السياسي بإقامة مسرح المحيط الهندي تحت القيادة الأمريكية عندما تم بناء الإمبراطورية العالمية الأمريكية في السبعينات من هذا القرن، نقول أن هذا الطريق الأسطوري موجود دوماً في كل الأزمنة التي قامت فيها علاقات تجارية في العالم قبل حيرام وبعده. وهو يبدل مجراه ضمن هذه المنطقة بحسب الظروف التاريخية ووسائل الإنسان، فيمر في أراضي هذه الأقوام أو تلك، تماماً كما يغير النهر العظيم مجراه من حقبة إلى أخرى في الأرض اللينة غير المتماسكة، وذلك بسبب ما يحدثه هو بالذات من تراكمات يجلبها جريانه ويضعها في طريقه. أما حيرام، ملك تجار عصره، الذي لم ير منه مدونو التاريخ إلا قصره وما يحيط به من ثراء دون الانتباه إلى الأسباب والمصادر الحقيقية لهذا الثراء، كما لم تر منه التوراة إلا "مورد" خشب الأرز و "متعهد" عمالٍ لبناء لبناء قصور ملوك اليهود، والذي لم تخصص له إلا بضعة أسطر من التاريخ، في الوقت الذي صنفت فيه المجلدات والبحوث الطويلة لسير أفراد تافهين تسرد حكايات حياتهم الخاصة في أدق تفاصيلها حتى تلك التي يشتركون بها مع عامة الناس في كل العصور، نقول أما حيرام ملك صور فكان أول من نظم مجرى ذلك الطريق العظيم ووضع أسس التعاون بين مختلف الأقوام الذي يمر بهم لصيانته وضمان جريان الحياة عليه. فكان أن تهيأت في وديانه وفي الشعاب التي

تصب فيه كل الأسباب المادية والروحية لقيام الحلقات الأخيرة من سلسلة ثورات التوحيد التي رسخت في النفس البشرية الطموح إلى تحقيق مبدأ تعارف البشر وتعـاونهم وتكـاملهم بنبـذ العبودية والاستعلاء على الناس، وعلى الأخص، نبذ الفاشية المتلونة بمختلف الألـوان عبـر التاريخ التي منها تلك الأسطورة الهمجية التي تزعم بأن الله عز وجل "يختار شعباً" مـن دون خلقه جميعاً ويخصه برعايته على حساب شقائهم ولو كان في هذا خرقاً لقوانين الحياة. إن ذلك الاتحاد التجاري العملاق الذي امتد من فنيقية إلى اليمن كان أحد المظاهر الأساسية لمرحلـة انتقال الجملة الإنسانية من طور العبودية إلى الطور الإسلامي، طور الحرفة الحرة والتجـارة العالمية النشطة. وهو قد شابه في ظروفه وخصائصه اتحاد المدن التجارية الهنصية الذي قام في أواسط القرن الثالث عشر ميلادي وبلغ أوجه في القرن الخامس عشر ميلادي حيث امتـد من نانت على المحيط الأطلسي إلى نوفجورود قرب ساحل البلطيق في روسيا، وحيث احتكر تجارة أواسط وشمال أوروبا: من ألمانيا وفرنسا إلى إنجلترة واسكندنافيا وروسيا. وكان هـذا الاتحاد يشكل أحد أهم ظواهر مرحلة الانتقال إلى الطـور الرأسـمالي بجملـة المجتمعـات الإنسانية، الطور الذي مزق دار الإسلام وقضى على الطور الإسلامي لهذه الجملة.

كان الفنيقيون يقيمون شبكة وكالاتهم التجارية على خطوطهم البحرية، وقد قادهم اليهود فأقاموا في مهاجرهم شبكة وكالات على الطرق البرية للتجارة التي كانت تصل أقطار مختلف الإمبراطوريات التي مرت على المنطقة، كما استخدموا بطبيعة الحال القوافـل البريـة التـي كانت تنظمها مختلف الأقوام للتنقل ببضائعهم. وكانت مراكز الشبكة الفنيقية تتوالى من جبيـل إلى صيدا فصور فقرطاجة، بينما غدت أورشليم مركز الـشبكة اليهوديـة. ولكـن إذا كـان بالإمكان انتقال مركز الشبكة الفنيقية من مكان إلى آخر بسبب الظروف السياسية والاقتصادية دون حدوث تغير نوعي في الشبكة الفنيقية العالمية فإنه ما كان بالإمكان بقاء الشبكة اليهوديـة المذكورة عند ضياع رأسها، عند خروج القدس وطريق حيرام-سليمان من سيطرة اليهود. إلا أن ذلك الكيان الاقتصادي برمته، الكيان الذي كان يتألف من الشركة الفنيقيـة اليهوديـة، زال تماماً بقيام الإمبراطورية اليونانية، وتبعته بالزوال قرطاجة بقيـام الإمبراطوريـة الروميـة. وعندما قامت دار الإسلام وقام معها الطور الإسلامي لجملة المجتمعات الإنسانية ما كان هناك في فلسطين أي أثر اقتصادي ملموس لليهود.

لقد كانت تلك الشركة الفنيقية اليهودية من أحداث الطور العبودي لجملـة المجتمعـات الإنسانية. لذلك فإن بكاء اليهود، قادتهم وكهنتهم وتجارهم ومرابيهم، على أورشـليم وهيكلهـا ماهو إلا بكاء على أشباح وأوهام حاول عبثاً احياءها وتغذيتها قادة اليهود في مختلف العصور بعرضهم مشاريع خيالية على مختلف الفاتحين والطامعين والمستعمرين عل جهة مـن هـذه الجهات تستخدمهم وتساعدهم لاستثمار ذلك "الرميم". وفي آخر الأمر جاء الـصهاينة، جـاء

الخزر المتهودين الذين لا تربطهم أية رابطة بقوم موسى عليه السلام ولا بقوم داوود وسليمان عليهما السلام، ليؤجروا أنفسهم للعمل في مخفر يقام على ذلك "الرماد" ويحرس للمـستعمرين الرأسماليين طريقهم إلى نهب ثروات الشعوب المقهورة.

حقيقة الأسباط العشرة المفقودين

بدأت الإمبراطورية الآشورية بدفع حدودها نحو حدود الإمبراطوريـة المـصرية فـي الزمن الذي انطفأت فيه شعلة الجهاد الموسوي وقامت فيه دولة يهودية عبوديـة كبـاقي دول المنطقة حينذاك. ثم أتى الآشوريون وقضوا على مملكة إسرائيل في السامرة في عهد سرجون الثاني وألحقوا مملكة يهوذا في أورشليم بإمبراطوريتهم في عهد خلفـه سـنحريب. وعنـدما ازدهرت التجارة وبقية الأعمال في هذه الإمبراطورية الناشئة، التي رافق قيامها قيـام عهـد الحديد فيها وفيما حولها في بلاد الحثيين والأناضول، هرع اليهود، كما هرع غيـرهم، إلـى أقطارها طلباً للتجارة والرزق. فتكونت نتيجة لذلك جالية لهم فيها، وخاصة في عاصمتها وما حولها. وإنه من الخطأ وتزوير التاريخ الأخذ بدعوى أولئك القائلين من أن هذه الجالية تكونت من بقايا أسرى شملنصر الآشوري. فاليهود أسرى هذا الملـك وأسـرى خليفتـه سـرجون وسنحريب كانوا عبيداً استهلكوا في الإنتاج في آشور، أو فقدوا جنسهم كيهود بعـد جيـل أو جيلين واختلطوا بغيرهم من الأجناس وضاعوا، أو انقطع نسلهم نتيجة للتعقـيم الـذي كـان يمارس على العبيد في تلك العصور أو غيره.. فالذين انتظموا في جاليات كانوا من الأحـرار الذين هاجروا كما قلنا طوعاً إلى تلك المناطق خلال أزمنة طويلة امتدت قبـل وبعـد تـدمير إسرائيل وإلحاق يهوذا بالإمبراطورية الآشورية. أما العبيد فما كان باستطاعتهم الانتظـام إلا في ورشات وساحات العمل كأدوات إنتاج وذلك لصرامة القوانين والأنظمة هناك فـي تلـك الأزمنة.

إن الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين التُطَيلي قام برحلاته في النصف الثاني من القرن الثاني عشر فزار كثيراً من مناطق البحر الأبيض المتوسط ودون مشاهداته في تلك الرحلات. فهو يقول أنه شاهد في منطقة العمادية ونهاوند يهوداً قدر عددهم بنحو خمسة وعـشرين ألفـاً متفرقين في مواقع عديدة ويتكلمون فيما بينهم الآرامية الشرقية وهم، بحسب زعمهم، من بقايا أسرى شلمنصر.. ثم يأتي الدكتور غرانت، المبشر البروتستانتي الذي له كغيره من المبشرين البروتستانت هواية خاصة في البحث عن براهين مادية لأساطير التوراة، فيقول أنه وجد أدلة على أن كثيراً من مسيحي مناطق كردستان كالنساطرة مثلاً هم أيضاً من بقايا اليهـود الـذين سباهم الآشوريون ثم تنصروا على يد البعثات التي أرسلها حواريو السيد المسيح إلـى تلـك المناطق لنشر الدعوة المسيحية. وينتهي غرانت إلى أن الأسباط العشرة المفقودين، وهم يهـود

مملكة إسرائيل السامرة، هم أولئك النساطرة مع بقايا اليهود الذين يـسكنونهم إلـخ.. أمـا أن النساطرة كانوا يهوداً في الأصل ثم تنصروا فهو أمر طبيعي لأن المسيحية قامت في البدء في الوسط اليهودي في فلسطين ثم انتقلت منه إلى أوساط الجاليات اليهودية في مختلـف أنحـاء الإمبراطورية الرومية على أيدي الرسل ومبعوثيهم، كما نقرأ في أعمال الرسـل مـن العهـد الجديد. ولكن هذا لا يقدم أي برهان على أن تلك الجاليات اليهودية كانت في الأصل تتـشكل من العبيد أو من المجلوين قسراً عن أرض "إسـرائيل" و "يهـودا" والمنفيـين فـي الـشتات المزعوم. فالأمر على العكس من هذا تماماً فهو يقدم لنا برهاناً إضافياً على أن تلك الجاليـات تكونت بالهجرات الطوعية مادام يهود فلسطين، بحسب قول غرانت بالذات، لهم علم واتصال بهم عند قيام الدعوة المسيحية بعد عدد من القرون من زوال الإمبراطورية الآشورية. فيكـون إذن من الأصح والأقرب إلى الواقع كون مناطق تلك الجاليات وأشباهها، المشهورة حينـذاك، وكل حينٍ آخر، كأسواق عمل نشطة، مهاجر لطالبي الرزق والمغانم لكل الناس ومن جملـتهم اليهود، كما هي حال أمريكا وكندا واستراليا في هذه الأيام. وفي واقع الحال، عندما ننظر إلى المناطق التي أشار إلى وجود اليهود، ووجود المسيحيين من أصل يهودي، فيهـا كـل مـن غرانت والتطيلي وغيرهما نجدها تقع على طرق التجارة النشطة التي كانت تأتي من منـاطق القوقاز والخزر وأواسط الأناضول وتذهب إلى طرقات الأهليلج الخصيب كما هو مبـين فـي الخارطة رقم (2) لهجرات الشعوب المتصلة بالخزر وطرق تجارتها المنـشورة فـي بحـث السبط الثالث عشر لكوستار المار ذكره. وهنا نكرر مرة أخرى فنقول أن الاضطهاد والحيـف وقع على اليهود كما وقع مثله على غيرهم من الناس فهاجروا، ولكن إلى مهـاجر معروفـة وقائمة بغير سبب الاضطهاد. ذلك لأن علل الحياة أوسع من أن تحـشر فـي سـبب واحـد (كالاضطهاد مثلاً) يتجمد العقل عنده كما يحدث عادة عنـد المتعـصبين لكـل أمـر أمثـال المتعصبين لأباطيل توراة بابل وما تبعها من أباطيل اليهود التي تبالغ في إبـراز "امتيـازات الشعب المختار" حتى في مصائبه .. ثم إن قول غرانت ومن بعده قـول الـدكتور نيـوزنر صاحب كتاب "تاريخ اليهود في بابل": بأن المسيحية انتشرت في كردستان كما انتشرت بـين يهود فلسطين، وبأن اليهودية انتشرت قبل هذا بين الأقوام المحيطة بالجاليات اليهوديـة، هـذا القول يعيدنا إلى المجرى الواقعي للحياة ويزيل الغموض في بعض الظواهر التي منها مـثلاً ظاهرة اختفاء يهود إسرائيل السامرة وعزو هذه الظاهرة خطأ إلى السبي الآشـوري وحـده. فكما نفهم من أناجيل العهد الجديد كان اليهود في عصر السيد المسيح موجودين في أراضـي إسرائيل السامرة التي قضى عليها سرجون الآشوري. فنقرأ مثلاً في الفصل الثامن من أعمال الرسل ما يلي: "وحدث في ذلك اليوم اضطهاد شديد في الكنيسة التي بأورشليم فتبدد الجميـع في بلاد اليهودية والسامرة ماعدا الرسل.. فانحدر فليبس إلى مدينة السامرة وجعل يكرز لهـم

بالمسيح. وكان الجميع يصغون بقلب واحد.. فلما آمنوا بما كان فلبس يبشرهم به من ملكـوت الله واسم يسوع المسيح اعتمدوا رجالهم ونساؤهم..". فاليهود إذن اختفوا من الـسامرة بـسبب أنهم تنصروا ثم أسلموا عند مجيء الإسلام.

ولننظر عن قرب إلى حكاية الأسباط العشرة الضائعين فهي من التصورات الغيبية التي ليس لها أي أثر في الواقع. فالأسباط الأثني عشر كما مر معنا هم الكتائب التي نظم بها موسى جماعته للخروج من مصر والقيام في سيناء التي اتخذها عليه السلام مع جنوب شرقي الأردن قاعدة للانطلاق إلى إزالة النظام العبودي. وقد تضخم في أثناء تلك الإقامة حجم كل سبط من تلك الأسباط بما انضم إلى الحركة الموسوية من أنصار لها من الثائرين على ذلك النظام ومن البدو العابيرو وغيرهم. وقد مر معنا أن معظم هذه الكتائب (نحو عشرٍ منها) وضعت لحراسة "اتحاد مدن المستضعفين والعبيد الذي أقامه يوشع بن نون والقضاة خلفاؤه قبل قيـام مملكـة اليهود بمساعدة حيرام ملك صور. وهذا الاتحاد الذي رأينا أن قيادته كانت في حِلْجالَ قـرب أريحا على الحد الفاصل بين مملكتي "إسرائيل السامرة" و "يهودا أورشليم" كان ينطبق تقريبـاً على إسرائيل السامرة وقد دام زهاء قرن من الزمان. ومما لا ريب فيه أن تلـك التـشكيلات العسكرية التي هي الأسباط (والتي لم تتشكل كما قلنا في سياق هذا البحث من عصبيات قبليـة وإنما من تنظيم عقائدي) فقدت خلال هذا الزمن الطويل كل صفاتها الأولـى وفـي مقـدمتها الصفة الجهادية، أما قادتها فقد قلنا أنهم غدوا إقطاعيين أسياداً للعبيد. وفي العهد الذي جاء فيه الآشوريون ليلحقوا مملكتي اليهود بإمبراطوريتهم كان قد مضى على ثورة موسى عليه السلام أربعة قرون تغيرت خلالها الدنيا ومن عليها وتغيرت معها كلياً تلك الأسباط الكتائـب التـي كانت تحمي مكتسبات الجهاد ضد الوثنية والعبودية فأصبحت مجرد أسماء تاريخية ينتسب إلى كل واحد منها كل من رغب وقدر من الأفراد والفئات الذين ما عرفت أنسابهم مطلقاً الأسـباط الأولى، تماماً كما يحدث عادة في كل الانتماءات القائمة على التقارب غير العصبي وخاصـة منه الانتماء الذي يقصد به التبرك والشرف. والخلاصة، يمكن القول أن الأسباط العشرة الآنفة الذكر اختلطت بسواد يهود إسرائيل السامرة وضاعوا بهذا الاختلاط وضاع معهم كل معنـى للانتساب إليهم. ثم أتت المسيحية وأتى الإسلام بعدها وانتشرا بين هؤلاء اليهود في فلـسطين والمهاجر. فهل نقول أن الأسباط التي انحلت منذ عهد داوود وسليمان وقبل هذا العهد قد بقـي منهم ما يصح أن نقول عنه أنه ضاع بعد عشرة أو خمسة عشر قرناً عند مجـيء كـل مـن المسيحية والإسلام على التوالي؟ وهل يكتسب بحث عنها كالذي أجراه الدكتور غرانت الآنف الذكر في القرن التاسع عشر، أي بعد أكثر من ثمانية وعشرين قرناً من انحلالها شـيئاً مـن الجدية؟ .. ولقد كان أولئك الباحثون عن "الأسباط الضائعين" يحسنون صنعاً لو أنهم توجهـوا إلى نابلس ومنطقتها في بحوثهم، إنهم إذن لوفروا كل تلك المشقات المضنية في التنقل علـى

الدروب الوعرة لكردستان ولوجدوا بين مسيحي ومسلمي تلك المنطقة بعضاً من أحفاد أولئـك الذين جاهدوا في صفوف تلك الأسباط ضد الوثنية والعبودية، هؤلاء الأحفاد المهددين حاليـاً بالقتل والتشريد من قبل متهودين خزر كما سبق وقتل وشرد أخوة لهم بأيدي هؤلاء الجلاديـن الخزر خدم المستعمرين الأمريكان.

الغيتو

كان اليهود في كل مهجر يتجمعون في أحياء خاصة بهم فيتشكل لـذلك مـا يـسمونه الغيتويات التي تضمهم. تقول الموسوعة بريتانيكا في تعريف الغيتو أنه:" كـان فـي الـسابق شارعاً أو حياً في مدينة حيث يجبر اليهود على الإقامة فيه. والكلمة تطلق أحيانـاً علـى أي تجمع وثيق من الأقليات في مكان ما. ويجب تمييز المستوطنة التي تضم الأقليات القوميـة أو الدينية بشكل طوعي من التي تضمهم بشكل إجباري. وتاريخيـاً كانـت هنـاك فـي مـدن الإمبراطوريتين الرومية والساسانية شعوب من مختلف الأعراق تعيش في أحيـاء منفـصلة، ولكنها تتمازج دون تدخل من السلطات. وهكذا فإن مجتمعات يهودية ضخمة تواجـدت فـي الأسكندرية وأنطاكية وروما والمدن البابلية والفارسية الرئيـسية. إن القـديس بـولس وجـد مجتمعات يهودية عديدة غير معزولة في رحلاته الرسولية. أما في القـرون الوسـطى فقـد استقرت عائلات يهودية في مدن أوروبا في أحياء مخصصة (جودريا، جوداكـا، جـويغري الخ..) بدون أن يكون هناك إرغام في تلك التجمعات وبدون قيود على نـشاطات أصـحابها". انتهى تعريف برتانيكا.

وقد توضع اليهود دوماً على الطرق التجارية العالمية وفي كل مكان تنشط فيه الأعمال. فرأيناهم مثلاً يبدأون تاريخهم بالتوضع على طريق حيرام-سليمان المار ذكـره. وفـي أيـام الإمبراطوريات المصرية امتد نشاطهم إلى مصر كما امتدت أعمالهم على الطريق التجـاري الهام الذي يخترق الحجاز واليمن إلى المحيط الهندي. وانتشروا في وادي الرافدين الذي ينتهي إلى الخليج العربي أيام الآشوريين والبـابليين. ثـم توسـعوا فـي المـدن الفارسـية فـي الإمبراطوريات الفارسية. وفي أيام اليونان والروم نجدهم، بالإضافة إلى الأمكنة الآنفة الـذكر في الإسكندرية وقبرص وأنطاكية وأثينا وروما. وتوضعوا على طريق الحرير الـذاهب إلـى الصين وحول بحر الخزر وفي القوقاز وشمالي أفريقيا والأندلس وأواسط أوروبا. ثـم إنهـم تكاثفوا في الفترة الممتدة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ميلادي على طـول امتـداد اتحاد المدن التجارية الهنصية: من نانت على الأطلسي إلى نوفغورد في روسيا قرب البلطيق. ونجدهم في الطور الرأسمالي ينشطون في دوائر الأعمـال ودوائـر الـسياسة فـي بـلاد الإمبراطوريات الاستعمارية ذات السطوة والنفوذ: كانوا مثلاً يكثفون وينوعون نشاطهم في كل من الرايخ الألماني وفرنسا وإنجلترة وروسيا قبل وبعد الحـرب العالميـة الأولـى. وعنـدما

وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كان نشاطهم قد سبق وانتقل إلى البلد الذي أتى ليؤسس ويتزعم الإمبراطورية الرأسمالية العالمية المتعددة الرؤوس وهو الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبحنا نسمع الحكايات عن اللوبي الصهيوني وعن نفوذ هذا اللوبي في البلد الآنف الذكر وتأثيره في مجرى الحياة الأمريكية الداخلية والخارجية.

ولقد سعى اليهود بشكل دائم إلى تعزيز أوضاعهم الاجتماعية في كل بيئة حلّوا فيها بتنظيم جماعتهم على أساس طبقي بقيادة سادتهم وكهنتهم وعملوا دوماً على مساندة النظام القائم: كان اليهود مثلاً يناصرون الوثنية الرومية ويستعينون بها ضد المسيحية، وناصروا الوثنيين العرب ضد الدعوة الإسلامية، وهم حالياً يناصرون الاستعمار الأمريكي ضد حركات التحرر في كل أنحاء العالم فضلاً عن قيامهم بدور الحرس للقاعدة إسرائيل التي تحمي المصالح الاستعمارية الأمريكية في الوطن العربي ذي الموقع العالمي الحاسم من كل النواحي: العسكرية والسياسية والاقتصادية. ولهم في كل أدوار تاريخهم قيادة واحدة في كل إمبراطورية من الإمبراطوريات التي قامت عبر التاريخ منذ وجودهم على مسرح التاريخ. يقول مثلاً بنيامين التطيلي في رحلته المشار إليها آنفاً أن جميع طوائف اليهود المنتشرة في العراق وفارس واليمن والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وجورجيا وسمرقند والتبت والهند ترتبط "برأس الجالوت" المقيم في بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وقد بشروا باليهودية أينما حلّوا إلى أن توقفوا عن هذا النشاط في أواسط القرن الثالث عشر ميلادي. "وهكذا ظلت اليهودية زمناً طويلاً (ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً)، كما يقول ويلز في بحثه تحت عنوان "معالم التاريخ"، ترحب بمقدم كل من ينضوي تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى". ولكنها مع ذلك لم تلاق في انتشارها ما لاقته دعوتا المسيحية والإسلام من نجاح باهر، وإن كان عدد من استجاب لها من الأغراب في العالم يفوق بكثير عدد أتباعها في موطنها الأصلي. ذلك لأنها بعد أن فقدت كل طموح لثورة موسى عليه السلام في تحقيق خلاص البشر من العبودية لم يبق لديها أي شيء تغري به أقوام الوثنية الرازحة تحت أثقال الرق. بل إن التعالي على البشر أصبح بعد أن خمدت الثورة الموسوية في جوهر اليهودية التي استعاضت عن الأخوة بين الناس في عقيدة تلك الدعوة بخرافة "الشعب المختار" الذي يستغله مع ذلك قادته لتحقيق مآربهم الأنانية: إن هؤلاء القادة لا يترددون أبداً في سوق مستضعفي اليهود إلى الهلاك تحقيقاً لأغراضهم الضيقة، فالصهاينة مثلاً حرضوا النازيين على ذبح يهود المجر لإلقاء الرعب في قلوب بقية يهود أوروبا فيهاجروا إلى فلسطين. ثم إن شيطانهم هرتزل بالذات اعترف بأنه حرض وزير داخلية قيصر روسيا على اضطهاد متهودي بلاده الخزر ليجبرهم على ترك روسيا والمجيء إلى فلسطين. وفي الأزمنة التي توقف التبشير باليهودية كان كثير من أتباعها، فضلاً عن الأغراب عنها، يضيقون ذرعاً بكهنتها وقادتها "الذين يدعون، بحسب أقوال

الدكتور نيوزنر في كتابه تاريخ بابل، بأنهم يمتلكون الحق والامتياز بتوجيه حياة الطائفة اليهودية حسب تفسيراتهم للتوراة والتلمود.. فكانوا فضلاً عن ذلك يفرقون بين الطبقات من أبناء الطائفة اليهودية مما حمل الطبقة المهانة على الميل لتقبل الدعوة المسيحية..".

إن المجتمع، ككل الكائنات في الواقع، لا بد له من نظام يحكمه. وعندما يكون هذا النظام في خدمة طغمة تقوم على حفظه واستمراره فإنه لا بد له من أن يصبح، أمام تراكمات الحياة وتغيراتها في مرحلة من مراحلها، عاجزاً عن مسايرة حقائقها، فتتلاحق أزماته. ولكن المستفيدين منه يصرون بطبيعة الحال على التمسك به والدفاع عنه بكل الوسائل والأشكال. ولا بد من أن تقوم الثورة في النهاية لاستبداله بإزاحة أولئك المستفيدين. فإذا لم تتوفر لذلك المجتمع الظروف المادية الضرورية لتحقيق الحد الأدنى من متطلبات سواد الناس فيه وخاصة المستضعفين منهم فإنه يقع في نظام يمسك به ورثة من جاهدوا في سبيل إصلاح أحواله بعد أن يحرف هؤلاء الورثة عقيدة الجهاد ويقلبوها إلى مجموعة شعارات فارغة جامدة مع إضافة كل ما من شأنه خدمة مصالحهم الأنانية من شروح مضللة وأشباه حقائق وأكاذيب وغيره. ثم إن تجميد العقيدة عند ظروف قيامها بدلاً من إتباع جوهرها في السعي الدائم نحو إزالة كل ما يعوق تحرر الناس ومنع استعلاء بعضهم على بعض وتوفير تقدمهم المادي والروحي لتحسين أحوالهم جميعاً باستمرار، نقول أن تجميد العقيدة هو نقطة بدء الانحراف نحو وثنية جديدة تجعل من تشكيلات الجهاد وتمارينه الجسدية والروحية مجرد طقوس فارغة من كل معنى سوى الارتباط بشكل جديد من العبودية. وهذا ما آلت إليه اليهودية بعد ثورة موسى عليه السلام وجهاده. إن اليهود مثلاً يستمرون اليوم في استنزال اللعنات على فرعون وقد مضى أكثر من ثلاثين قرناً على زمنه في الوقت الذي يجندهم فيه الصهاينة لخدمة فراعنة رأسماليين لو وزعنا عليهم الفظائع التي ارتكبها نظامهم ضد الإنسانية لأربى نصيب كل واحد منهم على ما ارتكبه كل فراعنة التاريخ قبل طورهم الرأسمالي من فظائع. إن الرأسمالية التي يتجند الصهاينة لخدمتها في أشد مراحلها سواداً، في مرحلة صعود قتلة الهنود الحمر الأمريكان إلى قيادتها، أبادت الأجناس وقتلت أو تسببت بقتل الناس بمئات الملايين: إن أحد هؤلاء الفراعنة وهو ترومن مؤسس دولة إسرائيل قتل خلال عدد من الثواني مئات ألوف البشر في مدينتي هيروشيما وناكازاكي بقنبلتين ذريتين وذلك فقط لمجرد تجربتهما على بني الإنسان ورؤية مدى الدمار الذي يسببه هذا النوع من السلاح، وليس بغرض تحطيم العسكرية اليابانية التي كانت محطمة حينذاك وكان إمبراطورها يعد طلب الاستسلام.

إن قادة اليهود، بعد أن أداروا ظهورهم إلى الجهاد في سبيل تحرير الإنسان، وسعياً منهم إلى تعزيز مواقعهم في الأوساط التي حلوا فيها حالفوا بشكل عام الطبقات القوية ضد الضعيفة، والظلاّم ضد المستضعفين. فمن عهد احشورش وزوجته اليهودية استير وقريبها

ومستشارها مردخاي، المذكورين جميعاً في سفر استير من العهد القديم، إلـى يوسـف منـده المرابي اليهودي مستشار روكسلانة زوجة السلطان سليمان القانوني، إلى هرتـزل فزعمـاء الصهاينة في هذا العصر، نجد قادة اليهود يحومون حول أصحاب السلطان في العالم. ونجـد أيضاً عملاءهم يندسون في الحركات الاجتماعية، أو يؤسسون حركات مشبوهة تنتـشر فـي أنحاء العالم كالماسونية والروتارية وغيرها الموصوفة جيداً في العديد من البحوث والمؤلفات، وكلها توجه نحو أغراض تعادي على خط مستقيم الطموحات الشريفة للإنسان.